

هو العليم

ما هو الضمان الذي يعطيه الأولياء لاتباعهم؟

شرح دعاء أبي حمزة الشمالي - سنة ١٤٣٥ هـ ق - المحاضرة الثانية

محاضرة ألقاها

آية الله الحاج السيد محمد محسن الحسيني الطهراني

قدس الله سره



@MadrasatAlwahy

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلوة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد

وعلى آله الطيبين الطاهرين

واللعنة على أعدائهم أجمعين

يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «وَأَنَا يَا سَيِّدِي عَائِدٌ بِفَضْلِكَ هَارِبٌ مِّنْكَ إِلَيْكَ مُتَنَجِّزٌ
مَا وَعَدْتَ مِنَ الصَّفِحِ عَمَّنْ أَحْسَنَ بِكَ ظَنًا».

أي: أنا يا سيّدي ومولاي ومن يملك زمام أموري أعوذ بفضلك وأهرب مسرعاً منك إلىك، وأنا متنجز ومتاكد ومطمئن - بسبب حسن ظنني بك - من صفحك وعفوك، ومحوك لأعمالي السيئة التي أنت مطلع عليها، كما أنني أعتبر هذه المسألة مسألة واقعية وحقيقة، وليس مجرد وعد وإحالة على المستقبل.

مقام الخوف والرجاء من أركان السير والسلوك

في هذه الفقرات، يُشير الإمام السجّاد عليه السلام إلى نقطة مهمة وحيوية جدّاً في السلوك والطريق إلى الله تعالى، ألا وهي مسألة مقام الخوف والرجاء؛ فالإنسان من دون خوفٍ ورجاء لا يستطيع أن يطوي الطريق، ولهذا ينبغي عليه أن يتحقق في نفسه هذه المسألة على الدوام؛ لكي تكون بمثابة وقود يستعين به في حركته وطريقه، وإلاً سيكون عرضةً للتوقف، بل ومن

المحتمل أن يسقط في المهالك ويُبْتَلِي بالأخطر؛ فالذين يفتقدون للخوف والرجاء من المحتمل جدًا أن يتعرّضوا للأخطار الطريق وابتلاءاته، وأن يسقطوا في الانحراف.

وهذه المسألة (تحقق الخوف والرجاء في النفس) مسألة مهمة وحيوية جدًا قد شاهدناها عند جميع الأنبياء والأولياء والعرفاء، وقد بینا ذلك سابقاً حينما دار الحديث معكم ومع الرفقاء في ليالي شهر رمضان من الأعوام السابقة حول هذه الفقرات من دعاء أبي حمزة، أو نظير ما نشاهده عند أمير المؤمنين في أدعيته ومناجاته في مسجد الكوفة، وفي مناجاته الشعبانية (التي من المؤكّد أنّكم تقرؤونها في أيام شعبان المباركة)، وحقيقة إنّ هذه المناجاة عجيبة، وإنّ مضامينها لعجيبة.

وليس بإمكاننا القول بأنّ هذه الأدعية قد نشأت من عالم شعري وشعري، ومن سائر الحالات التي تعرض للإنسان في مقام الحديث مع محبوه ومعشوقه، حيث يضع نفسه في مثل هذه الأجواء، ويرسم لنفسه صورة ثمّ يبدأ بالتحدث بمثل هذا الكلام؛ فمثل هذه الأمور لا علاقة لها بما يعيشها العارف حينما يكون في مناجاةٍ وحديثٍ مع الله تعالى. يعني واقعاً لو كنّا نحن في ذلك الزمان عندما كان أمير المؤمنين يقرأ المناجاة الشعبانية في الليالي المظلمة، ويقول فيها ذلك الكلام.. لو كنا بالقرب منه، أو بالقرب من الإمام السجاد عندما كان متعلقاً بأستار الكعبة ويزرّأ تلك الأشعار ولديه ذاك الحال الذي نقل عنه، وكذا الحال في سائر الأئمة عليهم السلام.. لو كنا نحن بالقرب منهم وسمعناهم يقرأون هذه الأدعية والمناجاة، فماذا سنقول فيهم؟ هل سنقول بأنّهم كانوا يمثلون كما يزعم البعض الآن؟ فبعضهم يقولون: (إنّهم عليهم السلام كانوا في حالة تمثيل كما لو كانوا في المسرح.. فهم إنّما كانوا يقولون هذا الكلام لأجلنا نحن). هكذا يوجّه بعضهم هذه الفقرات من الدعاء، ويقولون: أني للإمام أن يتحدّث هكذا؛ فالإمام لم يذنب أصلاً، والإمام ليس فاسقاً، فإذاً الإمام قال هذا الكلام لنا ومن أجلنا!!

الإمام عليه السلام يعيش حالة الخوف والرجاء واقعاً ولا يتصنّعها

ولكن واقعاً، لو كنا بالقرب من أمير المؤمنين في مسجد الكوفة ورأينا الإمام يقرأ هذا الدعاء، ورأينا دموعه تنهمل من عينيه، فماذا سنقول؟ هل يمكننا أن نوجّه كلامه بهذا الشكل؟! هذا غير منطقي ولا هو مقبول أبداً! أو عندما يقرأ الإمام المناجاة الشعبانية مع الله، أو عندما يقرأ الإمام السجاد عليه السلام هذه الفقرات التي نقرأها في كل ليلة من شهر رمضان المبارك...

لقد كان الإمام يكرر الدعاء في كل ليلة؛ ولو كان ذلك للتعليم، لكن يكفي أن يقرأها مرّة واحدة، فلماذا يكرره في كل ليلة من شهر رمضان؟! إذاً هذه التوجيهات ليست صحيحة، إذ لو كان الإمام قد قالها من أجلي، لكن يكفي أن يقولها مرة واحدة فقط، لأن ذلك يكفي لكي نتعلم الدعاء! وبطبيعة الحال، لم يكن في ذلك الوقت آلة تسجيل وما شابه، فإذا كان غرضه مجرد التعليم كان سيقول: اكتب وقل هكذا: إلهي أنت الغني وأنا الفقير حتى آخر الدعاء... ولকفى أن يكتب مرّة واحدة فقط، ويعلن للناس والشيعة ويقول: من الآن فصاعداً أقرأوا هذا الدعاء، ول يكن دعاؤكم في شعبان هذه المناجاة، ولا تنتهي الأمر بذلك، فلماذا يكررها إذاً في الليلة الثانية والليلة الثالثة؟ ولماذا يقرأها في السنة القادمة؟! فتكرارها مرّة، ثم قراءتها مرّة ثالثة ورابعة وثلاثين مرّة، ما الغرض منه وما الفائدة المرجوة من ورائه؟!

هناك شريط مسجل سجله أحد رفقاء المرحوم العلامة رضوان الله عليه، ولا زال هذا الشخص على قيد الحياة - حماه الله وسلمه -، وكان من الأصدقاء السابقين. في ذلك الزمان كنت صغيراً في حدود العاشرة أو الثانية عشرة، وكانت أراه يأتي إلى المنزل، والمرحوم العلامة يسجل له أدعية شهر رجب وشعبان وشهر رمضان، حيث كان من أصدقائه الذين كانوا يقرأون الدعاء في الجلسات، ثم بعد ذلك كان العلامة يستمع إلى تلك الأدعية التي قام هذا الشخص بتسجيلها، فقد كان يستمع إلى المناجاة الشعبانية بعد عودته من المسجد مساءً، وكان يغرق في حاله الخاص. وأنا بدوري قد سمعت هذه المناجاة الشعبانية حوالي خمسين مرّة حتى الآن،

والشريط موجود عندي، ولو استمعت إليه الآن سأكون كأني لم أسمعه من قبل! وكأني أسمعه للمرة الأولى!

حسناً، لو كان أمير المؤمنين عليه السلام يكرر هذه المناجاة الشعبانية، وكنا بالقرب منه وسمعنا منه هذه المطالب وهذه الفقرات، وعايشنا حالة المسكنة والذلة والعبودية وحالة الخضوع والتواضع والفناء التي كانت لديه، ومن جهة أخرى نرى أنه يذكر حالة الربوبية وحالة الكبراء والعظمة والبهاء وحالة العلو والاستعلاء والمقام المنيع والرفيع لله تعالى، وكذلك لو عايناً وسمعنا المطالب التي يذكرها الإمام السجاد في دعاء أبي حمزة هذا.. لو اتفق لنا ذلك، فما الذي كنّا سنفهمه من هذا الكلام؟ هل كنّا سنقول: إنه ذكر ذلك لأجلنا نحن، وكان يمثل هذه الحالة لأجلنا، كما يصنع الممثلون؟ إذ ما الذي يفعله الممثلون عند تمثيلهم للفيلم؟ يأتي الواحد منهم ويتقّمّص دور شخص آخر، وعمله ووظيفته، يعني أنه يُخرج نفسه ويظهرها في قالب آخر، حتى يتمنى له أن يرسم موقعة ذلك الشخص، بقدر طاقتة. هذا يقال له تمثيل، ويدعى مثل هذا الشخص مثلاً! حسناً، إذا تبيّن ذلك فلا شكّ كلام الإنسان في الدعاء ليس من هذا القبيل، يعني واقعاً ليس كذلك، فهو لم يأت ويمثل أمامنا والعياذ بالله! ولا كان يحاول تقمّص دور إنسان عاصٍ ومذنب، فهذا كما هو واضح ليس هو مراد الإمام، والمسألة ليست بهذه الكيفية قطعاً.

فالممثلون يؤدّون أدوارهم بإتقان أحياناً، فيخرجون بشكل شخصٍ آخر بحيث يظن المشاهد أنه هو! يعني أنه يقوم بتحويل شخصيته إلى شخصية أخرى ويغيّر حاله بحيث تتغير هويته بشكل كامل، وهذا فنٌ كسائر الفنون. بعض الأشخاص إذا أرادوا التمثيل، فإنّهم لا يقومون به بإتقان، بل ينكشف حالمهم سريعاً، لكنّ بعضهم يمثلون عليك بإتقانٍ كبيرٍ - نستجير بالله - ويتقّمّص الدور بدقة بحيث لا ينطر ببال المخاطب أنه يلعب دوراً أمامك، فتعتقد أنّ الواقع هو ما يبيّنه! وهذا بنفسه فنٌ يدرّس ويعلّم؛ بأنه كيف يمكن للإنسان أن يعيش أجواء أخرى ويغيّر فضاءه إلى فضاء آخر، وأن يغيّر في حاله ليتقّمّص شخصية أخرى، فهذا بحاجة إلى عمل وتمرين وقت.. ففي النهاية هذا الأمر موجود.

ولكن مع ذلك، فإن التمثيل يبقى معروفاً مشخصاً، فبكاء الأم الثكلى ليس بكاء النائحة،
(وليس الثكلى كالمستأجرة).

در عزائي گر بود صد نوحه گر *** آه صاحب درد را باشد اثر

[إذا كان في العزاء مائة نائح، فصوت صاحب المصيبة هو الذي يترك الأثر]

فذاك الصوت الذي يأتي من صاحب المصاب هو الصوت المؤثر، أما النائح الآخر فهو يحكي صوت هذا فقط ويقلّده، وهو في الواقع يمثل الحزن والبكاء، بل ربما كان يضحك في قلبه ويقول: جيد أن تنزل هذه المصيبة على رأس هذا الرجل.. فهو وإن كان ينوح في الظاهر، لكنه في قلبه يفكر في ذلك، إذ قد يكون بينهما حساب وعتاب أو شيء آخر، والحال أن الآخرين قد يظنون بأنّ صاحب المصاب هو هذا لما يتظاهر به من الحزن، ولكن مع ذلك يبقى صوت صاحب المصاب هو المؤثر.

حسناً، إذا نظرنا الآن إلى الإمام عليه السلام، فماذا يا ترى تكون حالته عندما يقول هذا الكلام؟ وما هي الحقيقة التي في قلبه وباطنه التي يظهر منها هذا التضرع والمناجاة؟ وهذا البكاء والتضرع، عن أيّ حقيقة يحكي في ضمير الإمام عليه السلام ونفسه وقلبه؟ وكيف يمكننا أن نتصوّر مثل هذا الأمر من الإمام عليه السلام؟

من آفات الطريق: غلبة الرجاء على السالك فيعتمد على اتسابه إلى الأولياء فقط

ولقد كنّا نشاهد هذه الحالة في حياة العظماء والأولياء أيضاً، أجل كنّا نراها بعيننا، و كما ذكرت سابقاً فإنّ من جملة الأخطاء والاشتباهات التي كنّا نراها في زمان حياة المرحوم العلامة بين الكثير من الرفقاء والإخوة هي أئمّهم كانوا يتتصوّرون بأن المرحوم العلام قد انتهى عمله، وأغلق ملفّه، فصار يمكنه أن يفعل أيّ شيء يحلو له، ولا شيء عليه! فقد وصل إلى المقام المنيع لعزّ الربوبية، وليس لديه بعد ذلك أيّ مشكلة، بل المشكلات إنما هي من نصيبنا نحن، وكلّ السعي والمراقبة والعمل إنما هو منوطٌ بنا فقط! كان يوجد هذا التصور بين الجميع، دون استثناء، إلا بعض الأفراد الذين فهموا المسألة إلى حدّ ما! فكان الأكثر يظنّون بأنه قد انتهى ولا

شيء عليه وأنه يمكنه أن يفعل ما يحلو له. وليس هذا الأمر فقط كان موجوداً عند الإخوة، بل إن بعضهم قد ذهب إلى أبعد من ذلك، فقالوا بأنك عندما تضع رجلك في منزله تحصل على ضمان وصلك الأمان! أو كما يقال: عندما يختتم السلطان رسالته، فقد وصلت إلى مرادك، فوا عجباً من ختم السلطان هذا!

حسناً، هذا كلّه بسبب عدم فهم المطلب، وهو ناشئ عن عدم الإدراك الصحيح: فهو لاء لم يلتفتوا إلى هذه الفقرات من دعاء أبي حمزة، وهم قد غفلوا عن أنه بشكل عام عندما يصل الإنسان إلى معرفة مقام العزّ الربوبي ويطّلع على عنایة الله وصفاته، فإنه يمسي في حالٍ وموقعيّة خاصة، ونحن ما دمنا لم نصل إليها، فلا يمكننا فهمها، فهو يصل إلى حال بحيث أن شعورنا نحن الذين نرى بأننا لم نمشي شيئاً وأننا لم نطوي من هذا المسير الطويل شيئاً، وأنه "كم بقي أمامنا من الطريق للوصول.."، فنحن هكذا نفكر، أليس كذلك؟ أم أننا نعتقد بأن المسألة قد انتهت بالنسبة إلينا وأننا قد وصلنا؟ [يُبَتَّسِم سماحة السيد، ويقول:] إذا كان لدينا إنصاف، فلن نمنح أنفسنا درجة عشرين، بل أقصاها سنمنح أنفسنا درجة ستة عشر أو سبعة عشر لا أكثر! ونترك ثلاث درجات أو أربع للمسائل التالية. فإننا في مثل هذه الحالة؛ حيث نرى أنه كم أمامنا من الطريق! وكم نحن مقصرون! وكم لدينا من ذنوب وجهل وتقدير وقصور.. فنحن نرى هذه الأمور كلها في أنفسنا، وبعد ذلك نضع أنفسنا في حالة من الخوف والرجاء، ونقول: إلهي إن لم تشملنا عنايتك فسوف يصير كذا، وإذا أنزلت علينا غضبك وسخطك فسوف يكون مصيرنا كذا! حسناً، عادة نحن في مثل هذه الوضعية، إذا كان لدينا إنصاف فهذا سيكون حالنا، لا مثل ذاك الرجل الذي ذكرت لكم بالأمس قضيته.. ذاك الذي قال: "أشعر بأني قد وصلت إلى مقام بحيث أنني صرت من المؤهلين لطريق هذا الطريق" .. ثم بعد ذلك رأينا ما الذي حلّ به وأين صار! إن الإنسان ليخجل واقعاً من ذكر ما آل إليه أمره.

وبحمد الله لقد رأينا جميع الأصناف، فأحياناً يترك الإنسان ويَتَّخِذ طريقةً مغايراً، ويعادر مبتعداً بسلام: في أمان الله! ولكن بعضهم ينفصل ويترك، إلا ذلك يكون أول عملٍ له، وأول ألطفاه التي ستتوالى عليك عبر خطاباته وكتاباته وإملائه وإنشائه..

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ لَا يَبْتَلِي أَحَدًا بِذَلِكَ! فَإِنّي عِنْدَمَا أَتَحَدَّثُ مَعْكُمْ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَرْجُفُ بَدْنِي
لَهَا؛ وَأَقُولُ: (إِلهِي، لَوْ كَانَتْ عَنْيَا تِكَّ بِي سَتْنَقْطَعُ يَوْمًاً، فَسُوفَ نَكُونُ مِثْلُ هَؤُلَاءِ تَمَامًاً).. لَقَدْ
بَلَغَ بِهِمُ الْأَمْرَ أَنْهُمْ كَانُوا يَرْسِلُونَ رَسَائِلَ لِلْمَرْحُومِ الْعَلَّامَةِ، لَا دَاعِيٌ لِذِكْرِهَا؛ فِيهَا عِبَارَاتٌ لَا
يَسْتَخْدِمُهَا الْأَفْرَادُ السَّفَهَاءُ وَأَبْنَاءُ الشَّوَارِعِ، وَفِيهَا سَبٌّ وَفَحْشٌ... وَهَذَا مَنْ صَدَرَ؟ لَقَدْ صَدَرَ
مِنْ شَخْصٍ كَانَ يَقُولُ: "لَا يَوْجِدُ مِثْلُ هَذَا الشَّخْصَ [أَيِّ السَّيِّدِ الْعَلَّامَةِ رَضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ] عَلَى
وَجْهِ الْأَرْضِ أَبْدًا!".

أَيْنَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ وَأَيْنَ يَصِيرُ؟! لِمَا صَرَنَا هَكَذَا؟ وَلِمَا ذَرَنَا إِلَى هَذَا الْمَوْقِعِ؟!
فَمَنْ يَقُولُ: "لَقَدْ بَحَثْتُ فِي الْأَرْضِ (طَبِيعًا) هُوَ بَحْثٌ بِمَسْتَوِيِّ حَالَهُ وَمَقَامِهِ وَمَسْتَوِيِّ إِدْرَاكِهِ،
وَلَا نَدْرِي كَيْفَ بَحَثَ بِزَعْمِهِ!)"، بَحَثْتُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَلَمْ أَعْثِرْ عَلَى شَخْصٍ مِثْلِهِ، ثُمَّ مَعَ
ذَلِكَ يَأْتِي وَيَكْتُبُ مِثْلُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْمَرْحُومِ الْعَلَّامَةِ! وَقَدْ قَرَأْتَهَا، ذَكَرَ فِيهَا كَلَامًا لَا
يَسْتَخْدِمُهُ أَبْنَاءُ الشَّوَارِعِ فِيهَا بَيْنَهُمْ! فَمَا سَبَبَ ذَلِكَ؟ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدِيهِ خَوْفٌ وَرَجَاءٌ، بَلْ كَانَ لَدِيهِ
جَانِبٌ وَاحِدٌ فَقَطُّ، كَانَ يَظْنُ بِأَنَّ "خَتْمَ السُّلْطَانِ" قَدْ خُتِمَ عَلَى صَفْحَتِهِ وَانْتَهَى الْأَمْرُ! وَبِمَا أَنَّ
خَتْمَ السُّلْطَانِ قَدْ طَبَعَ عَلَى صَفْحَتِهِ، فَقَدْ ضُمِّنَ لَهُ الْأَمْرُ وَاسْتَلَمَ صَلَكُ الْأَمْانِ! هَلْ التَّفْتِّمُ؟! نَسَأَلُ
اللَّهَ أَنْ لَا يَصِيبَنَا بِذَلِكَ.

فَالْإِنْسَانُ هُنْهَا يَكُونُ فِي حَالٍ يَتَصَوَّرُ بِأَنَّهُ فِي أَمَانٍ، وَيَمْسِي فَارِغَ الْبَالِ مِرْتَاحًا، لَا يَشْغُلُهُ
هُمٌ وَلَا غَمٌ! لَقَدْ كَانَ الْمَرْحُومُ الْعَلَّامُ يَقُولُ: عِنْدَمَا يَأْتِي رَفَقاؤُنَا إِلَى هَنَا، يَتَصَوَّرُونَ بِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ
قَدْ اَنْتَهَتْ! لَا يَا عَزِيزِي! فَأَنْتَ عِنْدَمَا جَئْتَ إِلَى هَنَا إِنَّمَا تَكُونُ قَدْ عَثَرْتَ عَلَى الطَّرِيقِ فَقَطُّ، فَأَنْتَ
أَنْتَ الْمَسْأَلَةَ؟ فَأَنْتَ وَصَلَتْ إِلَى الطَّبِيبِ لِلتَّوَّ! فَمَنْ الْآنُ عَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ وَصْفَتِهِ وَتَشْتَرِي
الدواءَ مِنَ الصَّيْدَلِيَّةِ وَتَتَنَاهُلُ إِلَيْهِ وَقَتْهُ بِشَكْلِ مُنْتَظَمٍ، وَعَلَيْكَ مَرَاعَاةُ الْأَمْوَارِ الَّتِي نَهَاكَ عَنْهَا أَيْضًا،
فَهَذِهِ الْأَمْوَارُ عَلَيْكَ أَنْ تَقْوِمَ بِهَا مِنَ الْآنِ.

الوصول إلى الأستاذ الكامل هو أول الطريق لا آخره

ثم يقول العلامة: هؤلاء يعتقدون بأنهم وصلوا إلى النبي! ولكن يا عزيزي حتى النبي لم يكن كذلك؛ إذ ماذا حصل للأشخاص الذين كانوا مع النبي؟! (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)^١، إن الله يقول للنبي: أنت لست محيطاً بأعماهم ومسيطرًا عليها؛ بحيث تقول لهم: اذهب يميناً وادهب شماليًا فيمثلون، لا، بل أنت مذكر فقط، عليك أن تبين المطلب وتوضح الطريق فقط، لا أنه لك الأمر في تحريكهم في هذا الاتجاه وذاك الاتجاه! عليك أن تبين الأمر لهم، فمن أتقن واستجاب لك، فبسم الله، عليك أن تقول لهم: حقيقة المطلب هو هذا، والطريق القويم هذا، والطريق المعوج هو ذاك، والصحيح هذا، وتبين المسائل بهذا الشكل! ما الدليل على هذا الكلام؟ دليله هو ما حصل عندما ارتحل النبي صلّى الله عليه وآله عن هذا العالم، فما الذي حصل عندئذ؟ لقد تركوا طريقه ومشوا كالأنعام إلى سقيفةبني ساعدة لتعيين خليفة له! ألم يعلن النبي بالأمس على هذا المنبر وأمام الجميع بأن علياً هو الخليفة من بعده؟! أو لم يقل: «إني تارك فيكم الثقلين...»؟! إن هذا الأمر لعجب! انظروا علينا أن نجعل أنفسنا في ذلك الموضع! فهل الأشخاص المحيطين بالنبي أقل منا؟ هل كان عدد كريات الدم عندهم أقل؟ أم أن دماغهم كان أصغر من دماغنا، أم قلبهم أصغر؟! بل كانوا مثلنا؛ فقد كانت دمائهم كدمائنا وأدمغتهم كأدمعتنا، وكانت أحجامهم مثلنا؛ طولهم متر وستون سنتيمتر، أو متر وسبعون، أو متر وثمانون، أو متران.. وكان أكلهم كهذا الأكل وكلامهم هكذا، وإدراكيهم كذلك.. فما الذي حصل واقعاً؟ هل فكرنا في ذلك بالجد؟ يعني لو كنا في زمن النبي هل سنكون كسلمان وأبي ذر وعمار الذين ظلّوا على استقامتهم بعد رحلة النبي؟ أم لا، كنا سنخضع لذاك الفضاء والجو الإلحادي الذي كان، وكانت ستؤثر علينا تلك الدعايات التي حصلت وتلك الأحداث التي وقعت، فتتحرّك مع أولئك الناس الذي تحرّكوا؟! فعندما يفكّر الإنسان برزقه وعياله وأولاده، عندما يفكّر بحياته ومستقبله.. سيقول عندها:

^١ سورة الغاشية (٨٨)، الآية ٢٢.

"واوياه، لقد خرج الأمر من يد عليّ! واوياه، لقد فعلوا فعلتهم! لكن ماذا عنّي أنا؟
ما الذي ينبغي عليّ فعله الآن؟ بأيّة جهة أتحقق؟ والحال أنّ جميع هؤلاء الناس قد ذهبوا كالسيل
إلى تلك الجهة! لقد انتهى الأمر وصار الذي صار، لقد حصل انقلاب وانتهت المسألة!".
ولكن يا عزيزي، صحيح أنّ المسألة قد انتهت، ولكن لماذا تنتهي أنت أيضاً؟ صحيح أنّ
انقلاباً قد حصل ... نعم، فسقيفةبني ساعدة كانت انقلاباً، حيث عملوا انقلاباً واستولوا على
الحكم.. أولئك الأوباش والأراذل والظلمة الذين كانوا يتآمرون في حياة رسول الله ويعقدون
الاجتماعات السرّية؛ فسقيفةبني ساعدة لم تكن وليدة ساعتها، بل كانت تُعقد الجلسات من قبل
هؤلاء قبل شهادة النبي بسنوات مديدة، حيث كانوا قد خطّطوا وهبّوا الأمور، وكانوا يتظرون
ارتفاع النبي فقط، وحتى أنّهم عملوا على قتل النبي، وفي النهاية سُمّموه، فمات النبي بالسم!
وعليه، فما هي حقيقة هذه المسألة؟

إنّ الله تعالى يُحيي الأمور للإنسان ويضعها أمام عينيه، يا عزيزي، إنّ سقيفةبني ساعدة
موجودة الآن، ففي نفس هذه اللحظة توجد سقيفةبني ساعدة، وتوجد الدعایات، نعم، الآن،
في هذه الليلة.. ليلة الخميس، حيث تحدث هنا، والإخوة والأصدقاء يستمعون إلى هذه
المطالب. (إنّ هذه المطالب التي أذكرها لكم قد سمعتها بعينها من المرحوم العلامة، نعم،
بنفسها، بل حتى بنفس العبارات) أجل إنّ سقيفةبني ساعدة موجودة الآن، وطريق أمير
المؤمنين موجود الليلة، والمسألة ليست مزاحاً يا عزيزي! فإذا كنت مستقيماً، فأنت في هذه
الجهة، وأماماً إذا أردت أن تختال على نفسك وتتلقن رأسك في الرمال وتقول: "لا يراني أحد"،
فالحجّة دائماً تامة، والدليل واضح دائماً، والمطلب جلي دائماً؛ فإن وضعت رأسك في التراب،
فأعلم أنّك في سقiffeبني ساعدة! ولا مجاملة في ذلك.

في أحد الأيام، أرسل لي أحدهم رسالة قال فيها: "يا سيّد، ينبغي عليك أن ترفع اليد عن
هذه الأفكار التي لديك وما يدور في خلدك، وتعال واقبل بهذه المطالب [وأتبع طريق فلان]!"،
فقلت له: "أنا بدوري أقترح عليك أن تتخلّ عن أفكارك وما يدور في خلسك، وتعال واقبل
 بكلّ ما أقوله لك أنا!"، هذه بتلك! فإذا كان لديك دليل مقبول على كلامك، وارتضيـتـ هذا

الدليل، فسمعاً وطاعة! وأمّا إذا لم تأني بدليل وقبلت كلامك من دون دليل، فسوف أكون في سقيفةبني ساعدة! إذا شعرت بأنك مخطئ بناء على ما لدى من معلومات ومرتكزات وعقل وفطرة وما حصلت عليه حتى الآن، (فما تعلّمته إنما ينفعني في مثل هذا اليوم، وسوف يكون منجيًّا لي وفاتحًا للطريق أمامي) .. فإذا أردت أن أرفع اليد عن هذه الأمور، فسوف أكون مثل أولئك الذين لم يعملوا بأوامر رسول الله، بل خالفوها، وعملوا وفقاً للشائعات والدعایات، فاستولوا على السلطة وجّروا معهم مجموعة من الناس؛ إذ أيّ فرق حينئذ سيكون بيني وبين هؤلاء؟ لا فرق أبداً!

إنَّ كلامنا هذا يبتنى على أساس اعتقادنا بأنَّ الإمام لا يفرق حاله بين الحياة والموت؛ لأنَّ حقيقة الإمام عليه السلام حيَّة دائمةً، بخلاف بدنَه الذي يكون حيًّا في زمان ما، وفي زمان آخر لا يكون حيًّا؛ فسيَّد الشهداء عليه السلام كان حيًّا ما دام يمشي، وأما بعد أن استشهد، فقد تهاوى بدنَه، لكنَّه بنفسه لم يتهاوى.. نفس سيد الشهداء لم يمت ولم يُدفن، بل بدنَه الذي دُفِنَ، حيث أتى الإمام السجاد ودفنه تحت التراب، ثمْ جاؤوا بعد ذلك وصنعوا له قبةٌ وضربيحاً؛ فهل يعني ذلك أنَّ الإمام الحسين موجود تحت تلك القبة فقط؟ لا، ليس كذلك؛ لأنَّ تلك الحقيقة لا تختص بمكان، بل هناك بدنَه فقط! وإلا، لو كان ذلك صحيحاً، إذا قلنا الآن: "السلام عليك يا سيد الشهداء، السلام عليك يا ابن رسول الله"، فسوف يكون سلامنا هذا لغوًّا؛ إذ الإمام الحسين ليس هنا، فمع من نتكلّم؟ فالإمام الحسين في كربلاء، تحت تلك القبة! فلمن تقول: "السلام عليك يا ابن رسول الله"؟ عندما تقول: "السلام عليك يا ابن رسول الله"، فإنَّ ذلك يعني أنه الآن إلى جانبك.. إلى جانبك الآن يستمع إليك، ولديه خبر عن حالي ووضعك، ومطلع على مقدار إيمانك بطريقه، وكم أنت صادق عندما تقول: "يا ابن رسول الله"!!

تذكرة الأن مسألة مضحكه.. لقد كان لدينا أستاذ يدرسنا المنطق - رحمة الله عليه -، وكان من منطقة تبريز، وهو غير المرحوم الغروي رحمة الله عليهم أجمعين. قال لنا ذلك الأستاذ: في يوم من الأيام، كنت أمشي في نواحي آذربيجان¹ وتبريز وتلك المناطق، فوصلت

¹ المراد من آذربيجان هنا، إحدى المحافظات التابعة لإيران، وليس دولة آذربيجان المتاخمة لنفس تلك المحافظة. المترجم.

إلى مكان، و كنت في غاية الجوع والعطش، حتى أني كدت أن أفقد الوعي لشدة غلبتها عليّ، فوصلت إلى أرض مزروعة بطيخاً، فقلت في نفسي: أكاد أموت من شدة الجوع والعطش، وهذا هو وقت الأكل من هذا البطيخ، خصوصاً وأنّ بريقها يعمي الأ بصار، فالأكل منها الآن ليس مستحيّاً فقط بل هو من أشد الواجبات!!! والحاصل أني ذهبت وتناولت بطيخة وشرعت بأكلها؛ فما إن بدأت بالأكل وإذا بصاحب المزرعة - وهو رجل طويل - قد أتى حاملاً الرفتش والعصا بيده، فقال لي: ماذا تفعل هنا يا شيخ؟! جئت لتأكل أموال الناس؟ فلم أدر بماذا أجبيه، فقلت له: إني جائع! فقال: وإن كنت جائعاً.. أهله لا ينك جائع، تأتي وتأكل أموال الناس؟! وشرع بتوييشه باللغة التركية - فليتفضّل الأخوة الترك بترجمة كلّماته - !!! قال الأستاذ: فوجدت أنه لم يعد أمامي شيء أقوله، فقلت له: أنا مجنون! فقال: هل أنت مجنون؟ مجنون من؟ فقلت مجنون سيد الشهداء! فقال: عجباً! ثم قال: إن العاشق إلى درجة الجنون إذا نادى معشوقه، يحبّيه! فإن كنت صادقاً في كونك مجنوناً، فانهض وسلم على حبيبك! فإن أجب، وإلا ضربتك بهذه العصا على رأسك! فقلت في نفسي: يا سيد الشهداء، أنا لم أرد أن آكل البطيخ، والآن جاء هذا الرجل العظيم يريد أن يضربني بالعصا على رأسي، افعل شيئاً وأنقذني.. [ضحك] هذا ما يقال له اضطرار، يعني حصلت له حالة اضطرار، فقلت: السلام عليك يا أبا عبد الله! فوضع المزارع يده على أذنه وقال: لا بأس، لا بأس.. فقلت: الحمد لله لقد نجاني الإمام الحسين، وإلا لكان نصيبي هذه العصا، وانتهى أمري!!!

حسناً، فهم يفهمون ميزان صدقنا في الدعوى التي نقول بها، ومدى صدقنا عندما نقول: السلام عليك.

فالإمام الحسين عليه السلام حيٌّ، وحقيقة خالدة أبداً؛ يعني أنه بإمكان الإنسان أن يجعل هذا الأمر محكاً له في كلّ ظرف، ليعلم أنه في السقيفة أم في مكان آخر؟ فالآئمة عليهم السلام والعظماء والعرفاء والأولياء لديهم من الخوف والرجلاء الذي نشعر به أمام غضب الله (أو لطفه) مضروباً في ما لا نهاية؛ فهو لاء لديهم هذه الحالة بالنسبة إلى الله! لا أن نظنّ بأنّ حاهم قد وصل إلى حدّ قد انتهت المسألة عندهم وأنهم فعلوا ما عليهم، وأنهم حصلوا على ضمان..

ما هو الضمان الذي يعطيه الأولياء لأتبعهم؟

بعضهم هكذا يقول: فلان أعطانا ضماناً! ما هذا الضمان؟ وما هذا الكلام؟ فالضمان إنما يحصل من خلال الاختيار والعمل، يعني: إذا كنت ترغب في المشي في طريقنا، وتعمل على هذا الأساس، فسوف نأخذ بيده، ولن نتركك؛ وهذا هو معنى الضمان، لأن تذهب وتفعل ما يحلو لك من أمور ومن أخطاء، وتقول: لقد أعطينا الضمان! حسناً، افعل ذلك، لنر كيف سيوصلك ذلك إلى المقصود!! إنَّ معنى الضمان هو: أننا متوجّهون إليك، ونسدّدك ونراقبك ونحافظ عليك ونحفظك من الأخطار؛ هذا هو معنى الضمان، لأن تجلس في منزلك وتقول: لقد ضمن لنا كُلَّ شيء! فالجلوس في المنزل لن يصلك إلى أيِّ شيء، ولا يتربّ عليه أيُّ أثر أو نتيجة، كما أنَّ الذهاب إلى أيِّ مكان وموضع - كيما كان ومن دون حساب - لن يثمر أيِّ شيء! نعم، إذا كان الإنسان سائراً في الطريق، وكان له قصد ونية، فسوف نذكر إن شاء الله في الجلسات القادمة كيف يعمل الإمام عليه السلام على إيجاد تلك الومضة في قلبه، وأنَّه لهذا أنت جالس كالماء الراكد، وتقضى حياتك هكذا على أمل أن يحصل شيء؟!! فالمسألة ليست بهذا الشكل! لكن يبقى أنَّ جميع هذه الأمور ترجع إلى الفهم والإدراك؛ فما دام الإنسان لم يدرك مكانته الحقيقية بشكل جادٌ ويقيني، وطالما أنه لم يع خطورة أمره، ويفكر في عاقبته وما يتظشه في المستقبل وما هي المكانة التي منحها الله إياه وما الشيء الذي يخسره.. ما دام غير مطلع على هذه الأمور، فلن يكون لديه الدافع الكافي، والمحفز اللازم، والاهتمام اللائق، وتلك الحركة التي عبرَ عنها الإمام عليه السلام بعبارة "هارب" حينما يقول: "هارب منك إلينك"! فهل نحن في حالة هرب؟ من مَا لديك هذه الحالة؟ هل نحن واقعاً نهرب إلى الله؟ يعني: هل إنَّ حركتنا هذه و فعلنا ومنهجنا في الحياة هي هرب نحو الله؟ - فالإمام يقول: أنا في حالة هرب إلينك - أو أنَّ الأمر بالنسبة إلينا أن نعيش ونقضي أوقاتنا هكذا (لا يجوع الذئب ولا يفني الغنم)، وتنقضي أعمارنا بشكل من الأشكال، وتنحل المسألة في الأخير وتتضح بشكل معين؟!

في يوم من الأيام، كانت هناك جلسة في منزل المرحوم العلامة، وكانت الجلسة صباحاً على الفطور، وكنت صغيراً في وقتها؛ ولعل عدد الأشخاص الذين كانوا يأتون إلى تلك

الجلسات لم يكن يتجاوز سبعة أو ثمانية أشخاص، وكانوا من رفقاءه وكان لديهم أنس خاص به، وقد كان واضحًا بالنسبة لي كيفية جيء هؤلاء ومقدار اهتمامهم؛ إذ ترى بعضهم يأتي قبل طوع الشمس ويقف على الباب، وترى بعضهم يصل بعد وضع المائدة، وبعضهم يأتي بعد شروع المرحوم العلامة بالمحاضرة، هذا مع أنّ عددهم لم يكن يتجاوز سبعة أو ثمانية أشخاص، وترى أحدهم يأتي في آخر المحاضرة ويبداً بالاعتذار بأنه لم يجد سيارة وكذا وكذا، وإذا سأله: متى خرجمت من منزلك؟ يقول لك: منذ عشرين دقيقة! – فهذا نوع آخر من الأشخاص!!! – ثم يقول: حتى لو وصلت متأخرًا، يكفي أن أأخذ بركة المجلس! لكن بعد مضي الزمان وانقضاء سنوات على تلك الجلسات، أرى أنّ بعض هؤلاء الذين لا زالوا على قيد الحياة – حيث أنّ بعضهم قد توفي وانتقل إلى رحمة الله – هم أثناء سير حياتهم على نفس الحالة التي كانوا عليها عندما كانوا يأتون إلى الجلسة في ذلك الوقت، وكل منهم يعمل بحسب سنه، أي أنّ منزلتهم ومرتبتهم وأعماهم هي بنفس تلك الكيفية التي كانت في ذلك الوقت! فذاك الذي كان يأتي في الأخير تخلى الآن عن هذا المسير، وقد اقتصر على بعض الصلوات وقنع بها؛ وكأنه لا خبر جاء ولا وحي نزل!!! وكذلك الأمر بالنسبة لآخرين، حيث نجد أنّ حال كلّ واحد منهم الآن مرتبط بالحال الذي كان عليه في ذلك الوقت؛ وهذا أمر عجيب! فعجب كيف أنّ همة الإنسان وفكه وبصيرته وذكاؤه الثاقب وفهمه ودركه للمسائل هو الذي يحدد له حياته في المستقبل إلى آخر عمره؛ فهناك من كان يأتي قبل وضع السفرة؛ وهو المرحوم السيد مرتضى الرضوي، حيث كان يأتي قبل فتح الباب ويقف من دون أن يطرق الباب حتى لا يسبب إزعاجاً، وهناك من كان يأتي بعد ذلك – ولا أريد هنا أن أذكر الأسماء – وأما من كان يأتي في آخر خطبة العلامة، فقد كان ينطلق من منزله قبل عشرين دقيقة من انتهاء الكلام.. لقد كلفت نفسك كثيراً!!! يقول مع نفسه: فلنذهب لنر ماذا هناك، ونحصل على بعض الصفاء، ونتمشي قليلاً، ونشم الهواء العليل، فإن صادفنا وجود سيارة، نصل وتنتهي المسألة..

من باب الاتفاق، رأيت هذا الشخص في مكان ما منذ مدة – لا أدرى السنة الماضية أو التي قبلها – فوجده في حال مختلف تماماً، فتبين أنّي لم أكن مخطئاً في القانون الذي بيته؛ فذلك

الشخص هو نفس الشخص الذي كان يصل عند نهاية كلام العلامة.. انظروا، كل شيء يخضع لحساب خاص! لقد كان المرحوم العلامة يقول مراراً: بمقدار ما تدفع مالاً تأخذ طعاماً.. بمقدار ما تعطي مالاً تأخذ طعاماً! وهذا الأمر هو الذي يشكل حياة الإنسان في طريقه نحو الوصول إلى الحقائق.

حسناً، نحن غير مجازين بالتحدى أكثر من هذا المقدار، فعل الإخوة أن يقبلوا عذرنا، وقد قطعنا على أنفسنا أن لا نتحدى بدءاً من الليلة أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، ولا أعلم إن كنت قد وفيت بذلك أم لا! نأمل من الله تعالى أن يتحقق هذه الحقائق في أنفسنا، وأن يستبدل بلطفه نقصانا إلى قدرة وقوة وهمة؛ وكما يقول الخواجة حافظ الشيرازي:

بر سر تربت ما چون گذري همت خواه *** كه زيارتگه رندان جهان خواهد شد

[عندما تمر بقبري اطلب الهمة هناك، فسوف يصير هذا القبر محلاً لزيارة شطار العالم]

فالمهمة أمر مهم جداً، إذ كل شيء ينشأ منها.

نسأل الله أن يوفقنا ويعيننا ما منحه لخواص عباده؛ من الهمة والتوفيق والحركة والسير نحوه، وأن يمنحك شمّة من تلك الأمور حتى نرى ماذا هناك، وما هي حقيقة المسألة حينها يقول الإمام السجاد عليه السلام في هذه الفقرات: أهرب إليك! وسوف نيّن إن شاء الله في الجلسات القادمة معنى الهرب وما الهرب.. يقول: أنا هارب إليك، لا أني أمشي إليك، بل مسرع نحوك بجميع قواي؛ وجميع وجودي أضعف في سبيل هذه المسألة.. وإنّه لأمر عجيب حقاً! اللهم ارزقنا فهم هذه المطالب، ثم امنحك الهمة للمسير في طريق هؤلاء العظماء والثبات عليه.

اللهم صل على محمد وآل محمد